المنبوذة

بقلم : صبحى الجيار

عندما عاد « رجب » الى بيته بعد منتصف الليل كعادته ، فوجىء بأن زوجته ما زالت متيقظة . فحملق فيها بدهشة ، وقال بألفاظ مضغتها الخمر :

ـ عجايب .. ؟ اشمعنى يعنى النهارده سهرانة لغاية دلوقت ؟

فتطلعت اليه فى خوف ، وهمست مترددة .

ـ أبدا ما فيش .. بس مش جايلى نوم ..

وتفرس فيها طويلا وهو يتمايل ثملا ، ثم قال فى شك :

ـ مش معقول .. لازم فيه حاجة .. باين القرف على وشك ..

فمصمصت بشفتيها وهى تشيح عنه بوجهها فى اشمئزاز . كيف تتفاهم مع هذا السكران ؟انها تعلم جيدا أن جوفه عندما يمتلىء بالخمر ، فانه يطغى على تفكيره المتزن ، ويفقده السيطرة على أعصابه . وعندئذ قد يرتكب أية حماقة دون تبصر بالعواقب ، وقد يستعمل يديه أحيانا فى تسوية المواقف الحرجة ، عندما لا يسعفه عقله المخمور .

حاولت « سهير » أن ترجىء مناقشة مشكلتها الى الصباح عندما يفيق زوجها المتهور ، ولكنه أصر على أن يعرف سبب يقظتها ، وقد صور له عقله المخدر أنها تعانده ، أو تخفى عنه سرا ، فاقترب منها وامسك بكتفها ، وراح يهزها بعنف ، ويصيح فى تهديد :

ـ لازم تقولى.. انتى فاكرانى كروديا..والا فاكرانى كروديا ؟ دانا افهمها وهى طايرة .. ما تقولى يا بت ..

فخلصت كتفها برفق من قبضته المرتعشة ، وقالت فى توسل :

ـــ الصباح رباح يا رجب .. روح اقلع ونام دلوقت .

ـــ مش ممكن .. لازم أعرف حالا ..

قالها فى تحد واصرار . فعادت تتحايل عليه عساها تقنعه :

ـــ روح نام ربنا يهديك. .دانت مش قادر تقف على رجليك .

فصاح غاضبا وهو يحاول عبثا السيطرة على توازنه :

ـــ ليه ؟ .. هو انا سكران ؟ .. انا بس مبسوط شوية ..

فقامت تسنده حتى لا يقع ، واجلسته بهدوء على حافة السرير وجلست بجانبه ، وبدات ترتب افكارها حتى لا تفلت منها كلمة يفقد معها اعصابه الواهية ، وهمست فى صوت متهدج :

ـــ اصل .. اصل اختى الكبيرة كانت عندى النهاردة ، و ... فقاطعها مستنكرا :

ـــ .. وايه اللى جابها دى كمان ؟ مش اهلك متبريين منك ..؟

ـــ .. أيوه .. أصلها كانت جاية تقول ان ماما ...

ـــ .. ايه ؟ ماتت ؟

ـــ بعد الشر يا أخى .. انت عاوز تموتها ليه ؟ ..

ـــ مش انتى اللى بتقولى ؟

ـــ هو انا لسه كملت كلامى ؟

ـــ طيب مالها بقى الست والدتك ؟

قالها فى استهزاء ، فدغدغ مقلتيها ، واجابت وهى ترفع المنديل الى انفها :

ـــ بتقول ان حالتها خطرة ، والدكاترة قاطعين الأمل فيها .

فرمش بعينيه ، وهو يحاول ان يتنبه للموضـــوع وقد جذبته أهميته ، ولكن لهجته لم تخل من الاستهتار :

ـــ طيب وانتى حاتعملى لها ايه ؟ حاتشيلى رجلها من القبر ؟ مش هم اللى طردوكى وقاطعوكى من يوم ما اتجوزنا ؟

فاقتربت منه ، وربتت على كتفه حتى تهـــدىء من ثائرته . وقالت فى ضعف واستجداء :

ـــ لكن هى اللى طلبتنى يا رجب .. نفســـها تشوفنى قبل ما تموت ..

— ماتموت يا ستى فى ستين داهية .. يعنى ما عرفتش ان لها بنت الا وهى بتموت ؟

.. ما سألتش عنك من زمان ليه ؟

رأت أهدابه الثقيلة يرخيها المخدر ، ويشدها العناد ، فآثرت أن توقف تيار الحديث قبل أن يورطه الغضب فى قرار من العسير أن يتراجع عنه . فقامت تساعده على خلع ثيابه وهى تقول :

— طيب نام دلوقت ، وبكره الصبح نتفاهم ..

فأخذ يدمدم بكلمات ممضوغة ، ساخطا عليها وعلى أهلها حتى خمد تكلماته الصاخبة ، وعلا شخيره ، وراح فى نوم عميق .

ظلت سهير مؤرقة ، وقد استبد بها الحنين الى امها ، التى تقاوم أنفاسها الأخيرة حتى ترى ابنتها المنبوذة ، وتراجعت أفكارها الى الوراء .. الى أربع سنوات مضت ، يوم تحدت ارادة اسرتها ، وصممت على الزواج من رجب شقيق صديقتها ، الذى استحوذ على قلبها فى أول جولة تخوضها مع كيوبيد . وكان وقتها يعاون أباه فى محل تجارته البسيط بعد أن تعثر مرارا فى الشهادة التوجيهية ، ولم يتو على اقتحام ابواب الجامعة . وعندما وقعت سهير فى طريقه لم يشأ أن يضيع الفرصة ، وتراءى له أمل بعيد فى ميراثها من أبيها الثرى .

وبدأ يلقى شباكه حولها فى حذق واحكام ، مستغلا اخته فى شحن أذنيها بمعسول الوغود وشرح تباريح الوجد والهيام . وتطورت العلاقات الى لقاء مختلس فى مكان شاعرى . ثم تعدد اللقاء فى غفلة من الاهل . حتى تمكن السهم من قبلها البكر الساذج .

وعندما تأكد رجب أن قلبها فى جيبه ، تجرأ ، وطلبها من أبيها ، وكان يعلم مقدما ان طلبه مرفوض . ثم بدأ يمهد للفصل الاخير من المهزلة ، فأعد الفاظه بعناية ورسم على ملامحه تجاعيد التعاسة ، وهمس فى أذنيها بصوت حزين :

— أنا عارف حظى نحس .. أنا ماقدرش أعيش من غيرك .. أنا لازم انتحر ..

وتفزع العاشقة الصغيرة ، وتهتف فى لوعة :

— بعد الشر يا حبيبى .. دانا روحى فداك يا رجب ..

وهنا تحين ساعة الصفر ، فيلقى الذئب بورقته الاخيرة ... الهرب ... نعم .. لماذا لا يهرب العاشقان ، ويتزوجان سرا

بعيدا عن تعنت ابيها المستبد القاسي !؟ .. وتجد الفكرة ترحيبا لدى العاشقة المتلهفة . وترتمي في احضانه مستسلمة .

اعتقد رجب ان هذا الاجراء العنيف سوف يضع عائلتها امام الأمر الواقع . ولكن اباها كان حازما عنيدا . فأعلن تبرؤه من ابنته المارقة ، وأحرم عليها دخول بيته الى الابد . ولكنها لم تندم كثيرا ، فان حبها الكبير كان يحجب عنها كل شيء .

وبدأ الملل يتسرب الى الزوج ، الذى حاول مرارا ان يصلح بين زوجته ومنبع ثرائها ، فباءت جهوده بالفشل . واخيرا وضع ما تبقى من كرامته على كفه ، وذهب بنفسه يطرق باب اسرتها . فخرج مطرودا بلا كرامة . وزحف اليأس الى اطماعه ، وتحولت زوجته من كنز منتظر الى عبء ينوء به ، ويستنفد جزءا من ايراده الهزيل .

وبرزت انياب الذئب من خلف بسمته الصفراء . فأهمل زوجته ، واساء معاملتها ، والقى عن كاهله ثوب الملائكة ، فبدا على حقيقته فظا عربيدا دنيئا ، لا يتورع أن يواجهها بصفاقة مؤنبا :

ـ ما تفارقينى بقى يا بوز النحس ... مش كفاية اهلك راميينك عالة على ..

وتسكب ندمها قطرات فى منديلها ، وتهمس فى ذلة وانكسار :

لك حق .. لو كان لى عيلة تقف قصادك ، ما كنتش تبيع وتشترى فى كده ... لكن انا اللى استاهل ...

ـ حد ضربك على ايدك ؟

ويفحمها الرد الحاسم ، فتبتلع لسانها وتصمت ...

وعندما انجبت ابنتها الوحيدة ، ظنت انها قد توطد عرى الود المفقود بين ابويها . ولكن الزمام كان قد افلت من أيدى سهير ، بعد ان تمرد رجب على الحياة الزوجية ، واصبح لا يأوى الى بيته الا بعد أن توغل عقارب الساعة فى عتمة الليل ، حتى يتفادى مجرد لقاء زوجته ، التى اصبحت فى نظره مجرد «مقلب» شربه مقهورا .

وعندما بدأت الكلمات الاولى تقفز الى شفتى ابنته ، وتفرد له قبضتها الصغيرة تستجدى ابوته قرشا ، كان يدفعها عنه فى ضيق . ويصيح فى استهزاء مغيظ :

ـ ابعدى عنى .. انا حلاحق عليكى انتى وأمك ؟ .. ما تروحى تاخدى من جدك الغنى .. جتك داهية انتى وجدك ..

وتنفذ الكلمات الى قلب الام كالمسامير المسننة . فتنطوى على جروحها ، وتصمت مستسلمة . وتعض شفتها حتى يدميها الندم .

واليوم ، فوجئت سهير بأختها الكبرى على عتبة بابها . وكان عناق طويل مخضب بالدموع . ودهشت سهير لان أوامر ابيها كانت تعتبر بيتها منطقة محرمة على اخوتها ، وكل من لهم صلة بعائلتها . ثم عرفت أن امها ذات القلب العليل تعانى سكرات الموت ، وتتوالى عليها نوبات الغيبوبة فتصحو خلالها ، لتردد اسم سهير .

وتهمس سهير فى نشيج وقد انفجرت من مقلتيها ينابيع الحنين :

ـ يا حبيبتى يا ماما .. واحشانى قوى يا ماما ... يارب طول عمرها .. ثم تتذكر عناد ابيها ، فتسأل أختها فى لهفة :

ـ وبابا عارف انك جاية عندى ؟

ـ طبعا .. انتى عارفة قد ايه بيحب ماما ... وما قدرش يرفض رغبتها الاخيرة .. خصوصا لما قعدنا كلنا نعيط ونتحايل عليه ...

ـ صحيح والنبى بابا موافق ارجع البيت ؟

فارتبكت أختها ، وقالت فى تردد :

ـ .. هو قال .. « تيجى مرة عشان امها تشوفها .. »

وانطفأت جذوة الأمل فى نفسها ، فنكست رأسها فى ذلة واستسلام .

عندما تسللت شعاعات الفجر الى المكان ، كانت سهير ما زالت مؤرقة ، والافكار المتصارعة تدق رأسها بلا هوادة . انها تتعجل نسمات الصباح حتى يفيق زوجها المخمور . وتحاول اقناعه لتحظى بالموافقة على زيارة امها المحتضرة .

وبينما كانت تعد له الفطور خطر لها ان تضرب له على الوتر الحساس ، لتصل الى مأربها ، وبدأت تنبش اطماعه قائلة .

ـ يمكن تكون دى فرصتنا عشان نصطلح مع بابا ..

فقاطعها متسائلا فى أمل :

ـ يا ترى لو طبت امك حتورثى فيها ؟ .. والا حرمتك من الميراث ؟ ..

فأسرعت تقول ، وقد لاحت لها ثغرة فى عناده :

— مش معقول تحرمنى .. دى لما تشـــوفنى حاصعب عليها خالص ، وعلى الاقل تصالحنى مع بابا قبل ما بعد الشر .. يجرى لها حاجة .

فخبط المائدة بقبضته ، وصاح فى غضب :

— بعد الشر ليه .. ؟ .. ما تسيبيها تموت .. على الاقل نورث لنا قرشين .

— المهم يا رجب ان ربنا يطول فى عمرها لغاية ما تصالحنى مع بابا ..

كانت تناقشه بمنطقة الخاص ، فأشرق وجههبالطمع ، وصاح بمرح :

— .. ومستنية اية ؟ قومى قوام روحى لها ..

فأسرعت الى حجرتها لتعد نفسها قبل ان يعدل عن رايه . وجاءها صوته المرح من الصالة :

— اسمعى يا وليه ... ما تنســـيش تاخدى معاكى البت الصـــغيرة .. يمـكن تحنن قلب جدها .. ان شـــاء الله تعدمه من بدرى .

دخلت سهير بيت ابيها بعد غيبة طويلة ، تجر قدميها المثقلتين بالخزى والخجل . وقد التصقت ابنتها بركبتها وتعلقت بذيل ثوبها الرخيص الكالح . والتقت سهير باختها الكبرى فى البهو الفسيح ، فتركت لها ابنتها ، وهرعت الى حجرة امها..واندفعت الى الجسد الراقد فى غيبوبة الموت . وارتمت صـــدرها باكية مولولة . كانت انفاس الحياة ما زالت تتردد فى صدر امها ، ولكنها كانت غائبة عن وعيهـــا ، فراحت ســـهير تهزها فى لهفـــة وجنون ، وتهتف فى نشيج :

— ماما .. ماما .. ردى على يا حبيبتى يا ماما .. انا سهير يا ماما ..

وتربت على خدها محاولة افاقتها ، ولكن رأس المحتضرة كان يتطوح بين يديها فى ضعف واسترخاء .. ثم احســـت بيد قوية ترفعها فى رفق ، وصوت أجش يهمس فى تهدج حزين :

— سيبيها دلوقت ، هى فى غيبوبة .. بعدين حتفوق ..

التفتت فى رهبة ، وقد ميزت اذنها الصوت العميق ، فطالعها

وجه أبيها ممتقعا كئيبا ، فوقفت مبهوته جاحظة العينين . وأحست برغبة شديدة في أن ترتمي على صدره وتبلل كتفيه بدموع الاستغفار . ولكن ملامحه الجامدة سمرتها في مكانها ، وشلت ذراعيها بجانبها وانتظرت أن يبدو منه ما يشجعها على الحركة ، لكنه أشاح عنها ، وانصرف خارجا في خطوات سريعة ، كأنه يهرب من ضعفه أمامها .

وعندما تابعته سهير بعينيها حتى الباب رأت أختها الاخرى وأخاها الصغير جالسين في ركن الحجرة ، انها لم تلمحهما عندما دخلت مندفعة الى سرير أمها .

وحرك الحنين قدميها في خطوات ذاهلة نحو اخويها ، فارتمى الصغيران بين ذراعيها ملبين نداء الدم . ثم عادت تجلس على طرف السرير ، مركزة نظرها على الجفنين المسبلين . حتى لمحت فيهما اختلاجة الحياة . ثم انفجرت العينان الذابلتان لتحتضنا وجه سهير الملهوف ، وابتسمت الأم في ضعف وهمست في نبرات واهنة :

ـ سهير .. بنتي ؟ .. الحمد لله اني شفتك قبل ما أموت ..

فهتفت سهير في صوت باك منفعل ، وهي تمرغ رأسها على صدر أمها ، الذي طالما منحها الامن والحنان :

ـ بعد الشر عليكي يا ماما ...

ـ انا خلاص انتهيت يا بنتي ... قلبي المجروح ما عدش يحتمل اكثر من كده .. المهم اني اطمن عليكي يا سهير يا بنتي ...

وتأملت وجه ابنتها الشاحب الذي حفرت فيه التعاسة كهوفا فوق شدقيها ، وقد أذبل البكاء عينيها اللتين كان الشباب يتفجر منهما قبل أن يجرفها الشيطان الى غلطة العمر .

وهزت الام رأسها في اكتئاب ، وهي تقول :

ـ انا عرفت كل حاجة يا سهير .. انتي اتعذبتي كتير يا بنتي ، لكن معلش .. ربنا يصلح لك أوقاتك ..

واشفقت سهير على نفسها بعد ما آلت من ذل وهوان ، فانفجرت في نحيب عنيف يزلزل كيانها الهزيل . واستطردت الأم هامسة :

ـ .. اعذرينا يا بنتي .. ما كناش نعرف ان الحالة وصلت بيكي لحد كده .. لكن ابوكي لسه واخد على خاطره منك .. روحي اندهي له يا سهير ..

ولمحت التردد فى عينيها . فقالت بحماس :

ـــ روحى يا بنتى ماتخافيش .. قولى له ماما عايزاك ..

وقامت ســـهير لتتجه نحو الباب فى خطوات وجلة بطيئة ، وخرجت الى الصالة ، فرأت أباها جالســـا فى كرسي كبير ، وقد أجلس حفيدته الصغيرة على ركبته ، وعندما فوجىء بسهير أمامه ، انتفض واقفا وابعد الصغيرة عنه فى حركة سريعة ، وصاح مغطيا موقفه :

ـــ حد ياخد البنت دى بعيد عن هنا ، لحسن عاملة دوشة ..

واتجه الى النـــافذة المطلة على الحديقة ليتفـــادى مواجهة ســـهير ، التى اقتربت منه ، ونادته من خلف ظهـــره فى نبرات مستجدية :

ـــ بابا ...

فالتفت اليها عابسا ، وقبل أن تنفرج شفتاه بكلمات غاضبة ، قالت فى صوت ذليل :

ـــ .. ماما عاوزه حضرتك ...

ودون أن ينبس بكلمة اتجه الى سرير المحتضرة ، فما كادت تلمحه حتى أمسكت بيده الضخمة ، وقربتها من فمها تريد تقبيلها ، فسحب قبضته فى رفق وهو يمسح باليد الأخرى على جبينهـــا المندى بالعرق البارد ، وهمست الزوجة فى توسل وابتهال :

ـــ لى طلب اخير عندك يا عثمان ..

وبدا صدرها يعلو ويهبط فى أنفاس لاهثة مضطربة ، وأسبلت جفنيها فى ضعف ، فهتف الزوج فى انزعاج :

ـــ ما ترهقيش نفســـك يا أمينة ... انا عارف انتى عاوزه تقولى ايه ... الكلام الكتير يتعبك ...

وعادت الام تقاوم سكرات الموت ، وترفع جفنيها الثقيلين ، وتهمس فى كلمات متقطعة ضارعة :

ـــ سامحها يا عثمان .. دى برضـــه بنتك .. وربنا بيغفر لعبده التايب ، ما تسيبهاش تروح للوحش ده تانى ...

وطال صمته فى وقفته الشامخة ، ثم انحنى عليها ، وقال فى تهدج :

ـــ اطمئنى يا أمينة .. ربنا يقدم ما فيه الخير ...

فارتسم شبح ابتسامة على الشفاه الصفراء ، وهمست فى امتنان :

ـــ الله يريح قلبك ..

وقطع الصمت صوت الطفلةالصغيرة ، تدخل الحجرة مندفعة نحو امها وهى تقول فى ابتهاج :

ـــ شوفى ياماما .. جدى جاب لى شيكولاته ..

والتفتت سهير نحو ابيها الذى استدار على صوت حفيدته ، والتقت عينـــاه بنظراتها النادمة . فتنهد فى تأثر ، والتمعت عيناه المغرورقتان بنداء حنون . ثم اندفعت ســـهير بلا شعور ، فارتمت على صدره باكية ضارعة ، وارتفع الجفنان المحتضران ، فرأت الام ذراع زوجها تلتفت فىحنان حول ابنته النادمة .. وهبطت نظراتها الكليلة ، فالتقت بحفيدتهـــا تلتهـــم قطعة الشـــيكولاته فى تلـــذذ وسعادة ..

ثم ارتخى الجفنان .. الى الابد ..